أسلوبية استخدام الضمير في النص القرآني
(قراءة في سورة الكهف)

الأستاذ الدكتور
صاحب أبو جناح

أسلوبية استخدام الضمير في النص القرآني (قراءة في سورة الكهف)

الأستاذ الدكتور
صاحب أبو جناح

المقدمة:ـ

الضمير في اللغة صنف من أصناف المكوّن اللغوي، يؤدي دوراً وظيفياً حيوياً متعدّد الجوانب، يتمثّل في وظيفته الإحالية المؤدية الى حالة التماسك النصّي في العبارات والنصوص المنطوقة أو المكتوبة، وهو يؤدي هذا الدور الحيوي في اللغة بحكم الطبيعة الإشارية التي اختص بها أو خصص لها، بعيدا عن الدلالة المعجمية التي لم يكن له نصيبٌ منها على النحو الذي نجده في الأسماء الظاهرة مثل أسماء الأعلام والأجناس والمصادر ومتفرعاتها وفي الأفعال.

وعماد هذه الطبيعة الإشارية ومهمتها "إنعاش الذاكرة لاستعادة مذكور سابق بواسطة إحدى الوسائل اللفظية التي تعين على الوصول إلى هذه الغاية"[١].

ولا يغيب عن البال أنّ أسماء الإشارة والأسماء الموصولة تشارك الضمير[٢] على نحوٍ من الأنحاء في هذه الوظيفة الإشارية والدور الإحالي المهم في عملية التماسك النصيّ، كما تشاركه في انعدام الدلالة المعجمية فيها مما نجدُ صداهُ في اختلاف فقهاء اللغة والنحاة في مكونات هذه الألفاظ، وفي تشخيص الجذر المكوّن لماهيتها وتحديد اللواصق المزيدة عليها[٣].

والبنية المكونة للضمير تنطلق من كونه عنصراً إشارياً، والإشارة في اللغة تكتفي بأقل الأصوات في العادة، لذا نجد الضمائر في العربية وأسماء الإشارة

والموصولات تقوم على مكون صوتي مختصر، عادة ما يصطلح عليه بالقاعدة الضميرية، أو الإشارية التي تومئ الى الحاضر بنوعيه: المتكلم أو المخاطب وإلى الغائب، ثم تلتحق بها لواصق تشير إلى نوع الجنس مذكراً او مؤنثاً، او الى العدد مفردا أو مثنى أو جمعا، على نحو ما عرض له فقهاء اللغة في مختلف لغات العالم، وبضمنها العائلة السامية، التي يفترض أنها انطلقت من لغة أم واحدةٍ، في أطوار زمنية متباعدة وفي بيئات جغرافية متسعة.

وبناءً على هذا الإدراك لطبيعة الضمير من حيث بنيتهُ ودلالتهُ ووظيفتهُ أُطلق عليه عند طائفة من النحاة ، لاسيما الكوفيين، مصطلح الكناية[٤]. وهي توحي كما هو واضحٌ بالدور الإشاري للضمير في الاستخدام اللغوي ووظيفته التعليقية للمكونات اللغوية بعضها ببعضٍ. وليس غريباً أنْ نجد سيبويه قد درج في كتابه[٥] على تسمية كل الضمائر المتصلة والمنفصلة باسم (علامات المضمرين)، ويفهم من هذه التسمية أن هذه الكلمات إشارة الى الاشخاص المحجوبة اسماؤهم عن الظهور في الكلام. ولعل هذا يؤازر ما ذهبت اليه قرارات مجمع اللغة العربية في القاهرة في احتساب ضمائر الرفع علامات حرفية دالة على الإسناد[٦] وهو ما يوفر علينا الجهد في تحليل جملة (المسافرون يغادرون) الى جملتين وليس جملة واحدة ومثل ذلك جملة (الأمهات يرعين أولادهن) إلى جملتين وليس جملة واحدة.

ونظراً لاقتصار الضمير على الدور الإشاري في اللغة تضاءلت بنيته وتقلصت إمكانيته التصريفية إلى أبعد الحدود، واقتصرت على إضافة بعض اللواصق الذيلية اللاحقة لبنيته مثل ألف الاثنين وميم الجماعة ونون الإناث وتاء المخاطبة، مفتوحة أو مكسورة، وبعض أصوات المدّ القصيرة المشخصّة لجهة الضمير المخاطب أو الغائب.

ومع هذه الطبيعة الاختزالية للضمير نجد أنَّ طاقته الإيحائية في العبارة

تتّسع للإشارة والإيماء بمضمون العناصر اللغوية المشار إليها، سواء كانت هذه العناصر مذكورة في كلام سابق أو غير مذكورة، على نحو ما هو معلوم في عائدية ضمير الشأن أو ضمير القصة.

ومن حق الدارس أن يعجب بل يفاجأ، حين يتبين له، بعد التأمل والتحليل، أنّ هذه الألفاظ تشير إلى أشياء وكيانات ماثلة في ذهنه، شاخصة من خلال السياق المكاني، إن كانت غائبة عن السياق المقالي، بل لا يكاد يتنبه، بسبب نصاعة إشارتها وقوة إحالتها، إلى أنَّ هذا المشار إليه غير مصرح به في اللفظ.

وهذا هو جوهر وظيفة الربط، التي تقوم على مبدأ الاستغناء عن إعادة الذكر وتعويضه بالرابط الذي يكون ضميراً او إشارةً او موصولاً، بما في ذلك (ال)الموصولة، وهي صور عدة لما يفترض أن يدعى كنايات. ودليل الربط لكل واحدة منها هو صحّة حلول الضمير الرابط محلها دون أن يتغير المعنى(٧).

ولا يخفى على المتأمل أنّ تحقق هذا الأمر مرهون بالمستوى البلاغي الذي يصاغ به الخطاب، وبمعرفة الجهة المتلقية له ومستوى إدراكها لما تتلقاه، والوسط الذي يقع فيه الحدث الكلامي.

وهو في مجمله يتكئ على استثمار خاصية التكثيف التي تتيحها المكونات اللغوية وأساليب تركيبها، وما يتولد عنها من شحذ ذهن المتلقي وحثه على تمثل القوة الإيحائية لطبيعة الإيجاز في الكلام واعتماد الكنايات الموحية لمدلول اللفظة الغائب أو المغيب لإنتفاء الحاجة إلى إيراد لفظه طالما أن الكناية عنه تشير إليه وتستحضر دلالته على نحوٍ أكثر إيحاءً وأوفر بلاغةً مما لو صرح به. وهذا بعينه ما تنبه له ونوه به عبد القاهر الجرجاني (ت٤٦٧هـ) في مقولته المتداولة في الحذف وهو نظير الإضمار، بل هو الإضمار بعينه " هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر. فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون

إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن"[٨].

وعند الحديث عن أسلوبية الضمير في النص القرآني لا بد من تناوله من جانبين اثنين: جانب البنية وجانب الوظيفة. وفي هذين الجانبين تتجلى قوة الفعالية التي يتمتع بها هذا المكون في بناء النص.

في النص الذي اخترناه للتحليل وهو (سورة الكهف) نجد بين أيدينا صورة مكثفة لاستخدام الأدوات الإحالية الرابطة، وهي في مجموعها كنايات إشارية تتضمن الضمائر والإشارات والموصولات وغيرها من الروابط التي تحقق تماسك النص وإحكام سبكه.

وسورة الكهف هي واحدة من مجموعة سور عدتها إثنتا عشرة سورة كلها مكية باستثناء (سورة الرعد) تتابعت في القرآن الكريم في سياق واحد، وقد تفردت هذه السورة التي ضمت مئة وعشر آياتٍ بسرد أربع قصصٍ اتسمت بطابع حجاجي جاء رداً على أسئلة أثارها يهود المدينة وأغروا قريشاً بسؤال النبي ﷺ عنها لاختبار صحة نبوته ومدى إعلام الله تعالى له بأخبار الأولين وما يتصل بهم من غيبٍ. وهذه القصص هي قصة أصحاب الكهف، وقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، وخبر ذي القرنين، وحديث الرجلين الذين كان أحدهما يملك جنتين فهلكتا لكفره بنعمة الله.

وطبيعة السرد في الأساليب القرآنية تقتضي الاتكاء على كل أدوات الإحالة لتكثيف النص وتجنب التفاصيل التي لا تخدم قضية الإبلاغ والموعظة، لذا تضمنت هذه السورة من الروابط الإحالية قدراً كبيراً يؤشر له أن الآيات الأربع عشرة الأولى من هذه السورة تضمنت ستين رابطاً بين ضمير وإشارة وموصول، واستأثر ضمير الغائب بأعلى نسبة، فقد ورد منه تسعة وثلاثون ضميراً مقابل خمسة ضمائر للمخاطب، وهو غالباً شخص الرسول ﷺ، وسبعة عشر ضميراً للحاضر المتكلم، وهو غالباً الذات الإلهية.

واللافت للنظر في السمات الأسلوبية لهذه السورة التي تقوم في مجملها على عنصري السرد والحجاج الذين يشكلان لُحمة بنيتها، أنها استثمرت المكون الضميري الإحالي بجميع صوره، على نحوٍ يستوقف المتأمل فيها، لكثافة هذا العنصر بين أجزاء النص وتواتره العالي.

ففي الآية التاسعة عشرة وحدها من هذه السورة وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف ١٩) ورد فيها عشرون مكوناً إحاليا بين ضمير غائب ومخاطب ومتكلم وإشارة.واللافت للسمع فيها تردد صوت الميم الذلقي المائع،باصطلاح الأصواتيين المعاصرين، الذي تكسع به الضمائر وتغلق به المقاطع المكونة لنسيج الآية الكريمة،فضلا عن تردد صوت النون بغنته المعهودة وذلاقته المميزة له عن الأصوات الأخرى غير الذلقية.

وقد تأسس التماسك النصي في هذه الآية الكريمة على كثافة هذه المكونات الإحالية، بما تحمل من إشارة لاستعادة مذكور سابق ينعش الذاكرة بما مرّ من حدث يراد الإشارة إليه مجدداً، وهذا غالباً ما تقتضيه الحاجة في سياق السرد القصصي، وفي هذه السورة شيء غير قليلٍ منه كما أوضحنا وسيتضح في البحث.

ففي الآية الموالية لها (العشرون) افتتاح بضمير الإحالة إلى قوم أصحاب الكهف الذين اضطروهم للاعتزال في كهفهم وغيبوبتهم التي صارت آية للناس، والجدير بالتنويه أن مجتمع هؤلاء الفتية لم يشر إليه القرآن أو يتحدث عنه طوال السورة بغير كلمة ﴿قَوْمُنَا﴾ في قوله تعالى على لسان أصحاب الكهف: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ (الكهف١٥) ولم ترد في غير هذا

الموضع،ثم كنوا عنهم بالضمير في الآية التي تلت هذه الآية ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ (الكهف١٦). تقول الآية (٢٠) ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ والضمير (هم) جاء بديلاً عن الذكر الذي يفترض أن يسمي القوم الذين اعتزلهم هؤلاء الفتية[٩]، فاختار الأسلوب القرآني التكنية عنهم بضمير الغائب المقترن بـ (إن)التوكيدية التي أكدت الخبر الماثل في الجملة الشرطية ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ الآية وفي هذا لا بد من أن نلتفت إلى أن التوكيد يتعارض مع الشرط الذي يتأسس على تعليق تحقق أمرٍ بتحقق آخر لم يقع بعد، لكن بلاغة القرآن لها منطق آخر في معرفة ثبات الجواب لو تحقق الشرط، فهو في حكم الواقع المطلوب الحذر منه أصلاً.

والمقصد هنا الاستغناء بالضمير في (إنهم) للإشارة إلى مجتمع هؤلاء الفتية الذي ذهبت به الضلالة بعيداً عما كان بين يديه من دين التوحيد الذي بشر به السيد المسيح عليه السلام، ولعل التجربة النفسية القاسية التي عاشها هؤلاء المؤمنون مع قومهم الذين تعاملوا معهم بفظاظة المشركين المعهودة تفسر لنا تحاشي هؤلاء الفتية ذكر قومهم الذين كان يفصلهم عنهم حاجز نفسي كثيف من جراء ما تمادوا فيه من الباطل والضلال.

وفي هذه الآية المكونة من اثنتي عشرة مفردة وردت الإحالة الضميرية في ثمانية مفردات تمثل ضمائر الغيبة والخطاب وهذا منتهى التكثيف وسبك العبارة.

ولابد من التنبيه إلى أن بنية الضمير لاسيما في جانبها الإيقاعي تتأتى من تأثيره المقطعي في رصف المبنى الداخلي للكلمات. فضمير المتكلم (نا) يمثل غالبا مقطعا مفتوحاً في آخر الكلمة مثل ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا﴾ (الآية٦٢) فضلا عن أن صوت النون من أصوات الذلاقة التي يصطلح عليها عند الصوتيين

المعاصرين بالأصوات المائعة.ونجد أمثلة أخرى في مثل هذه السورة في نحو قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف٦٥).

وضمير المخاطب يمثل مقطعاً مغلقاً ذا ايقاع خاصٍ في مثل (عليكم، يرجموكم، يعيدوكم، ملتهم) التي تساوقت وراء بعضها واكتنفها مقطعان مفتوحان في (يظهروا، تفلحوا) لموازنة المقاطع المغلقة، وأولها في الآية كلمة (انهم).

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (الكهف ١٠) نجد بنية الضمير تحقق خمسة مقاطع مفتوحة طويلة في ما مجموعه خمس عشرة كلمة هي مكونات الآية، فحققت للآية إيقاعا سلساً وبنية إنسيابية قلما نجدها في غير النصوص القرآنية، لاسيما إذا وضعنا في حسابنا، ويجب ان نضعه، إن مجمل آيات هذه السورة تختتم بمقاطع مفتوحة طويلة من نحو (عوجا، أبدا، ولدا و كذبا، أسفا، عملا، جرزا، عجبا) ونحوها، فهي تشكل اطار ايقاعي مرتفع النغمة والصدى للسورة بمجملها.

ومثلما نتبين مظاهر التكثيف السردي شاخصاً في مجمل النص القرآني في مثل قوله تعالى في سورة يوسف وهي نص قصصي ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ (يوسف ٤٢) ومثل قوله تعالى في أمر أخوة يوسف ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ (يوسف ٨٠).

نجد في سورة الكهف هذه سورة مدهشة لاستثمار أدوات الإحالة الضميرية بكثافة عالية في مثل قوله تعالى في خبر موسى عليه السلام مع فتاه يوشع بن ذي النون: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (الكهف ٦٢). في هذه الآية الكريمة يتردد الضمير (نا) بوتيرة عالية وفي مواقع إعرابية متنوعة

(الفاعلية والمفعولية والإضافة)، فضلاً عن ضمير الإشارة (هذا) وضمير التثنية الغائب في (جاوزا) وضمير الغائب في (فتاه). كل هذه الكنايات الإحالية المعبرة عن ذوات حسية غالباً ومعنوية لها تمظهرات حسية مثل الإشارة إلى السفر، أسهمت في بنية العبارة على هذا النحو من الحبكة والكثافة التي احتجنت حمولة دلالية عالية، فضلاً عن إيقاعها الصوتي الذي أضفى على النص انسيابيةً وتنغيماً رهيفين.

وهذا المظهر الإحالي الاختزالي المكثف للمضامين الدلالية القرآنية بما في ذلك مظهر الحذف لبعض عناصر الجملة الأساسية لا يقتصر على هذه السورة الكريمة فقط، بل هو مميز واضح لكل مظاهر السرد القصصي القرآني، فضلاً عن قصار السور التي نزلت بمكة أول الدعوة إلى الدين الجديد الذي لقي المقاومة من زعماء قريش.

هوامش البحث

(١) البيان في روائع القرآن:١٢٨.

(٢) النحو العربي، قواعد وتطبيق ٤٧، العربية الفصحى، ١٦١، فقه اللغات السامية ٨٩- ٩٢، العربية معناها ومبناها ١٠٨.

(٣) الانصاف، مسألة ٩٥،٩٦،٩٧،٩٨، ابن يعيش٨٤/٣، التطور النحوي، ٧٥، العربية الفصحى، ١٦٣، تاريخ اللغات السامية ٩، مدخل إلى نحو اللغات السامية ١٧٢ - ١٩٤، الضمائر في اللغة العربية ١٧.

(٤) معاني القرآن للفراء ٥/١، ١٩، ٨٥، ٢١٠.

(٥) كتاب سيبويه ٣٧٧/١ (بولاق).

(٦) الضمائر في اللغة العربية ٩٢.

(٧) البيان في روائع القرآن ١٣٩ - ١٤١.

(٨) دلائل الإعجاز ١٤٦.

(٩) الكشاف ٧١١/٢.

قائمة المصادر والمراجع

١- الانصاف في مسائل الخلاف ط٣، أبو البركات بن محمد الأنباري، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٥م.

٢- البيان في روائع القرآن، ط٢، د.تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٣- تاريخ اللغات السامية، إ. ولفنسون، دار القلم (أوفست)، بيروت، ١٩٨٠م.

٤- التطور النحوي للغة العربية، برجشتراسر، (بعناية د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٢م.

٥- دلائل الإعجاز ط٣، عبد القاهر الجرجاني، ت. محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٩٢م.

٦- شرح المفصل لابن يعيش، إدارة المطبعة المنيرية، القاهرة.

٧- الضمائر في اللغة العربية، د.محمد عبد الله جبر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

٨- فقه اللغات السامية،كارل بروكلمان، ترجمة: د.رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، ١٩٧٧م.

٩-في النحو العربي، قواعد وتطبيق د. مهدي المخزومي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٦م.

١٠- الكشاف، ط٣، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

١١- كتاب سيبويه، أبو بشر عمر بن عثمان،ط بولاق، القاهرة.

١٢- العربية الفصحى،ط٢، هنري فلش، تعريب د.عبد الصبور شاهين، دار المشرق بيروت، ١٩٨٣.

١٣- اللغة العربية، معناها ومبناها، د.تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٣م.

١٤- مجلة مجمع اللغة العربية، ج٦، ٢٢، القاهرة، ١٩٥١ - ١٩٦٧م.

١٥- مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن، موسكاتي وآخرون، ترجمة د.مهدي المخزومي، د.عبد الجبار المطلبي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م.

١٦- مدرسة الكوفة، د.مهدي المخزومي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٨م.

١٧- معاني القرآن للفراء، ت. محمد علي النجار وأحمد نجاتي،دار الكتب المصرية،القاهرة ١٩٥٥م.